القرآن الكريم بين ضروريات التفسير ومحاولات الترجمة

عبد الغفار بن نعمية

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة وهران – الجزائر –

bnnamia@yahoo.fr

شغلت الترجمة حيزا وافرا في كتب الأدب واتخذت نمطا مزدوجا بين دراسة نظرية للقواعد والأسس المعتمدة فيها، ودراسة تطبيقية للنصوص الأدبية شعرية كانت أو نثرية، لم يغفل العاملون في الحقل الأدبي بيان ما يمكن أن ينجر عليها من نقائص، فصاغوا لذلك سؤالا هاما مفاده: إمكانية ترجمة النصوص الشعرية بالضبط، لذا يصادفنا الجاحظ في كتاب الحيوان وقد عقد فصلا مهما سماه "صعوبة ترجمة الشعر العربي "عالج فيه حِكَمَ اليونانية وكتب الهند وآداب الفرس، وألمح إلى مكمن الصعوبة فقال إنّ: "بعضها ازدادَ حُسناً، وبعضها ما انتقص شيئاً".[1]

لا يخفى الدور الذي أدته الترجمة في التواصل الفكري بين مختلف الثقافات، بل هي إحدى وسائل نقل المعرفة التي أضحت خاضعة للتطور الحضاري بفاعل الزمن، مما يجعلها . الترجمة . أكثر جدية لتأدية المغزى الرِّسالي، لكنها تظل مُجرَّدة عن أي قيمة وهدف إذا لم تُعضّد بترجمان عملي، "يكون بيانهُ في نفس الترجمة، وزْن علمه في نفسِ المعرفة".[2]

يَعُدُ الجبر بالقلم في كتب الأدب للحديث عن الفكر السياسي اليوناني رغبة في تثمين جوانب التمازج بين الأدبين العربي واليوناني، ويشير النقاد إلى أنَّ هذه العملية لا تُنقصُ من شأن الأدب العربي شيئا، وأنّ المؤثرات الأجنبية لم تخدش أصالته التي تأسس عليها".[3]

المنارة للاستشارات

في هذا الإطار تأتي إشارة الجاحظ وهو من أعلام القرن الثالث الهجري (ت255هـ) إلى قضية الترجمة في ظرف يسمح للقول بأن الاهتمام العربي بالمعرفة الأجنبية كان مُبكرا، لكنه أورد الحديث عن الأدب اليوناني المترجم إلى العربية على سبيل المقارنة بينه وبين الحكمة العربية القائمة أساسا على الوزن، لذا يُنبِهُ الحكم الذي أطلقه . الصعوبة . إلى خصوصية النص الشعري المترجم، وأنَّه مُعرَّض إلى اختلال من شأنه إفساد المعنى بالدرجة الأولى، فقال "الشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل ومتى حوِّل تقطَّع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه وسقط موضع التعجب"[4] وهو مذهب أرجح النقد الأدبي بين اعتباره "مبدأ ذا حظ كبير من الصواب، إلا أنه شديد الخطورة".[5] إذ من شأنه إضعاف الهمم في محاولات ترجمة الشعر إلى العربية.

من جهة أخرى يمكن اعتبار الترجمة بظهورها المبكر عاملا مهما في التقريب بين ثقافات مختلفة، هندية وفارسية ويونانية وعربية،[6] لكن النقاد يؤكدون أن هذا التبادل الثقافي على أهميته فقد أدى دورا تكميليا لا أساسيا في الإفادات العربية، "إذ العرب كانوا مشاركين في حضارة الشرق؟ قبل الإسلام وبعده – وأنهم أيضا عرفوا الحكمة اليونانية قبل عصر الترجمة بزمن طويل، مثلهم في ذلك مثل الفرس، الذين عرفوا شيئا كثيرا من الحكمة اليونانية منذ عهد الإسكندر".[7]

هذه المقدمات النظرية المسوقة في باب الأدب بيَّنت إلى حد ما صور اللقاء بين الأدبين العربي واليوناني، وهي في كتب النقاد أوسع وأشمل، لكن الذي يلفت الانتباه هو الصعوبة الكامنة في ترجمة الشعر إلى العربية، نظرا للخصائص التي تميزت بها هذه اللغة، والمسألة بالضرورة عكسية، فالصعوبة تتقاسم الأمرين:

المنارة للاستشارات

الترجمة إلى العربية، والترجمة من العربية، وهما مسألتان لهما نَفَسٌ طويل في الأبحاث العلمية، صلتهما مُبَاشِرة بالقرآن الكريم، الذي اتفق العلماء على تعريفه "بكلام الله تعالى المعجز بلفظه ومعناه المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم باللفظ العربي بواسطة جبريل عليه السلام، المنقول إلينا تواترا، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس".

إن بنى هذا التعريف على مفاهيم جامعة مانعة، وباعتباره خطابا عالميا فقد كان لموضوع الترجمة أثرا بارزا في الأعمال التي صُنِّفت في هذا الصدد، لكن التأمل في ثنايا التعريف يوقفنا على كلمة "اللفظ العربي" التي تذكرنا بما قاله الجاحظ في صعوبة ترجمة الشعر سواء من اللغة العربية أو إليها، ونحن هنا حتما أمام لغتين إحداهما أصل والأخرى تبع، ويظل الجاحظ حريصا على توضيح هذه الصعوبة حين يقول "ولابد على الترجمان أن يكون أعلم باللغة المنقولة والمنقول إليها"[8] فكيف إذا تعلَّق الأمر بالقرآن الكريم الذي يفرض حقا تفسيرا للوصول إلى مُراد الله تعالى منه، وهو الذي يأمر بالتدبر في معانيه وسوره وآياته، بل ترد نصوص حديثية بالوعيد لمن يقرأ آيات مخصوصة منه ولم يتدبر".[9]

الحق أنَّ قدم الحديث عن الترجمة تماشى تماما مع ظهور موضوع الترجمة في القرآن الكريم، ويحفظ التاريخ أن قضية الصلاة بالفارسية أثارت جدلا بين المذاهب الفقهية، لكنها تكاد تتفق على عدم جوازها، إلا ما ذُكر عن أبي حنيفة الذي قال بجوازها سواء أتقن الحرف العربي أم لم يتقن، ثم رجع عن هذا المذهب إلى عدم الجواز"،[10] ومن هنا تتخذ ترجمة القرآن الكريم مسلكا مُهما إذ عُلم أنَّ هذا الأخير رسالة ختامية عالمية، ونزوله كان بلغة أريد لها أن تكون عالمية كذلك إذا نظرنا إلى القرآن بالميزة الأولى.

المنارة للاستشارات

هاتان الخاصيتان شكلتا محور اهتمام كبير ونقطة انطلاقة فعلية لمحاولة ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى كي يحقق مقصده من واجب التعلم والتعليم، حتى بلغ ما يقارب مائة وعشرون (120) ترجمة إلى خمسة وثلاثين (35) لغة ما بين شرقية وغربية وتكرر طبع هذه الترجمات حتى إن ترجمة جورج سيل الانجليزي طبعت أربعا وثلاثين مرة، وأوفر هذه الترجمات وأكثرها طبعا هي الترجمات الانكليزية فالفرنسية فالألمانية فالإيطالية، وهناك خمس ترجمات في كل من اللغتين الفارسية والتركية وأربع ترجمات باللغة الصينية وثلاث باللاتينية واثنتان بالأفغانية وواحدة بالجاوية وأخرى بالأوردية".[11] ولا يمكن أبدا أن تكون كل هذه الأعمال في مستوى واحد من حسن النية، خاصة إذا علمنا أن للأعمال الإستشراقية دخل كبير في هذه الترجمات، وهي الأعمال التي وضع البعض منها الطعن هدفا مروما لها رغم المستوى العلمي الكبير الذي لا يُنكر، حتى قال مالك بن نبي "إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها".[12]

في ظل كل هذه المعطيات يأتي الحديث عن التفسير كضرورة دينية من أجل تعلُّم تعاليم الدين، ولأهميته فضَّل بعض العلماء إخراجه من دائرة علوم القرآن ووضعه كعلم وباب مُستقل، وإنما نتج هذا بسبب جنوح أغلبهم إلى القول بأسبقية نشوءه على علم الحديث، من خلال الزيادات التفسيرية التي كان الصحابة يُدرجونها في مصاحفهم، وعليه اعتُبر التفسير علما مطلوبا لكنه مع ذلك يتطلب شروطا وآدابا يجب توفرها في المفسر وإلا جنح باللفظ القرآني إلى غير مراد الله تعالى.

المنارة للاستشارات

في هذا الصدد يرد تعريف التفسير عند جُلِّ العلماء مركزا على الألفاظ القرآنية وبيان مراد الله تعالى إذ هو في اللغة: "الفَسْرُ البيان فَسَر الشيءَ يفسِرُه بالكَسر وتَفْسُرُه بالضم فَسْراً وفَسَّرَهُ أَبانه"[13] ويرد مفهومه في الاصطلاح بـ: "علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ".[14]

أما الترجمة فيرتبط تعريفها في اللغة بـ "التُّرْجُمانُ والتَّرْجَمان وهو المفسِّر للسان، والترجمان بالضم والفتح هو الذي يُتَرْجِم الكلام أَي ينقله من لغة إلى لغة أُخرى"،[15] ويحرص المختصون في بيان حدودها أن مفهومها "لا يتعدى التعبير وبدقة وبصورة كاملة عبر وسائل لغة ما عما عبرت عنه لغة أخرى بوسائلها اللغوية في إطار وحدة المضمون والشكل".[16]

هذا المفهوم للقرآن الكريم وللترجمة على حد سواء يبين وبدقة الفروق التي يجب أن يُشار إليها، فالشأن في القرآن الكريم أن النص واحد وهو القرآن الكريم، لكن تفسيره لا يُتاح للكل، على خلاف ترجمته التي خاض غمارها الكثيرون على اختلاف مللهم ونحلهم وعلمهم وجهلهم، وهذا ما يبرِّرُ الأخطاء الجسيمة التي وقع فيها هؤلاء، في هذا الإطار تنبغي الإشارة إلى أن الترجمة في ما تعلق بالقرآن الكريم قسمان، ترجمة حرفية وأخرى معنوية تفسيرية:

"أما الترجمة الحرفية: فهي نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى، مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب، والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجَم.

المنارة للاستشارات

وأما الترجمة التفسيرية: فهي شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه".[17]

دقق العلماء الأفاضل في هذين القسمين بما يحفظ سلامة النص القرآني، وجنحوا إلى منع النوع الأول وإجازة النوع الثاني، مع مراعاة ما يترتب عن ذلك من أحكام، إذ الترجمة الحرفية مستحيلة بالنظر إلى خاصيات القرآن وميزاته، بل رعاية محضة للإعجاز الذي غلب رأي العلماء أن مكمنه في النظم والبيان، وهو الأمر الذي بسببه عجز العرب عن أن يأتوا بمثل القرآن ولو بآية واحدة، وهم أهل فصاحة وبيان، فكيف به إذا تُرجم إلى لغة أخرى هل كان سيبقى لهذه الخاصية أثر، وفي هذا يشير محمد حسين الذهبي قائلا: "وإذن فلو تُرجِم القرآن ترجمة حرفية – وهذا محال – لضاعت خواص القرآن البلاغية، ولَنَزَلَ من مرتبته المعجزة إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر، ولفات هذا المقصد العظيم الذي نزل القرآن من أجله على محمد صلى الله عليه وسلم".[18]

من الأمثلة التي ولَّدتها الترجمة الحرفية ما وقع فيه المترجم ماكس هينغ مترجم القرآن إلى الألمانية في قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾،[19] حيث ترجم كلمة إبل بالسحاب، وهو على غير مراد الآية، وكذا مارماديوك مترجم القرآن إلى الإنكليزية في قوله تعالى: ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**﴾،[20] حيث ترجم الكلمة بمعناها الأصلي فقال "فيشق رأسه" وهو على غير مراد الآية كذلك والذي هو الغلبة، كما يترجم قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾،[21] فيقول "ولا تجعل يدك مربوطة

المنارة للاستشارات

إلى رقبتك ولا تتركها من غير ربط" وهو على غير مقصود الآية أيضا والذي هو عدم البخل والإسراف على حد سواء.

مجمل هذه التراجم وغيرها جنحت بمعنى النص القرآني على غير مُراد الله تعالى، بسبب الخصوصية الواجب مراعاتها في عملية النقل والترجمة الحرفية، ولعل هذا ما دفع ببعض المترجمين إلى الاعتراف بهذه الخصوصية حين نسمع بالمر[22] يقول في ترجمته التي أتمَّها 1881م، وصارت هذه الترجمة واسعة الانتشار ومشهورة جدا، وقد طبعت مع مقدمة بقلم رينولداين نيكلسون، يقول: "إن ترجمة القرآن كما ينبغي هي مهمة عسيرة جدا، ومحاكة القافية والإيقاع من شأنه أن يعطي القارئ الإنجليزي رنينا مصطنعا غير موجود في الأصل العربي، ونفس الاعتراض ينهض ضد استعمال أسلوب الترجمة الرسمية للكتاب المقدس، ولهذا حاولت أن اتخذ طريقا وسطا: لقد ترجمت كل جملة بالقدر من الحرفية الذي يسمح به الاختلاف بين اللغتين، وترجمت كلمة بكلمة كلما كان ذلك ممكنا، وحيثما يكون التعبير خشنا أو مبتذلا في العربية لم أتردد في نقله بلغة إنجليزية مماثلة، حتى ولو كان النقل الحرفي ربما يصدم القارئ".[23]

هذا الاعتراف من بالمر في صعوبة ترجمة القرآن لا ينبغي الاغترار به كثيرا، إذ رغم صدوره لكنه لم يمنعه من عملية الترجمة، بل نجده يتجاوزه إلى وصف التعبير القرآني بالخشن والمبتذل، وإذا ثبت أنَّ هناك تقارب بين اللغتين العربية والإنجليزية من حيث الجذور التاريخية إلا أنَّ القدر المتفق بينهما لا يفي بخصوصيات القرآن الكريم، ولا يمكن أن يطالب بالمر بالأمانة طالما هناك فرق بينها وبين الحرفية، "إذ تتطلب الأولى في النص المترجم الروح والمعنى والتعبير، ورعايتها لا تجبر المترجم على التقيد التام، بل تسمح له بالتصرف في النص بالقدر

المنارة للاستشارات

الذي يخدم المعنى، أما الحرفية فتتجاهل إلى قدر كبير تباين الأساليب اللغوية بين اللغتين، وذلك يقدم المترجم في صورة مشوهة".[24]

نلحظ من جانب آخر مدى اهتمام بالمر بالتوراة حين يقول: "ونفس الاعتراض ينهض ضد استعمال أسلوب الترجمة الرسمية للكتاب المقدس" والظاهر أنَّه حين أطلق لفظ الترجمة الرسمية يقصد بها التوراة الغير محرفة، فنراه برفض ضمنا أن تترجم إلى غيرها من اللغات دون التقيد بخصوصيات التوراة.

إذا لم نقف على كثير من نمط هذه الاعترافات وقفنا على إلماحات وإشارات ترعى خصوصية اللغة العربية، إذ نجد فون همبولت يقول: "اللغة هي المظهر الحسي للناحية الروحية للناس وهي القوة التي تؤثر في أنماط تفكيرهم"[25] وهو تلميح إلى علاقتها بالناحية الروحية المحضة، كما نجد ألبرت ديتريش يقول: "لا مجال للشك في أن دراسة اللغة العربية هي الأساس الرصين لدراسة الحضارة العربية والتعمق في فهم العالم العربي".[26]

ولو فُرض التسليم بالترجمة الحرفية فماذا يمكن أن يطلق عليها: ترجمة القرآن، أم كلام الله تعالى؟ فإذا كانت الأولى فالمنع فيها ظاهر إذ لا بد في صياغتها من مراعاة نظم الأصل وترتيبه واستبداله بنظم آخر يقوم بتأدية المعنى مكانه، ويتحقق هذا إذا كان في مقدور الترجمة محاكاة نظم القرآن وترتيبه عبارة ودلالة ورمزا وإشارة"[27] وإن كانت الثانية اختلت فيها جميع القيود السابقة في تعريف القرآن، من اللفظ العربي، والتعبد بالتلاوة، والإعجاز باللفظ والمعنى، وقد حفظ التاريخ اعترافا بهذه الخصائص في عز بدايات الدعوة الإسلامية من طرف العرب حين عجزوا عن الإتيان بآية واحدة، واتهموا القرآن بالسحر والشعر والأساطير بناءً على قمة هذه الخصائص.

المنارة للاستشارات

هذا شأن الترجمة الحرفية، أما الترجمة التفسيرية فتبدو من خلال التسمية يسر المهمة فيها، "إذ حسن تصوير المعاني والأغراض فيها جعلها تشبه التفسير"،[28] فإذا عمدنا مثلا إلى الآية السابقة من سورة الإسراء وأُريد ترجمتها ترجمة تفسيرية فإنه يقتضي بعد فهم المراد وهو النهي عن التقتير والتبذير في أبشع صورة منفرة منها، ثم يُعمَد إلى هذه الترجمة فيُأتي منها بعبارة تدل على هذا النهي المراد في أسلوب يترك في نفس المتَرجَم لهم أكبر الأثر في استبشاع التقتير والتبذير ولا عليك من عدم رعاية الأصل في نظمه وترتيبه اللفظي.

الغرض المفيد من الترجمة التفسيرية هي أن تنقل التفاسير العربية إلى إحدى اللغات الأجنبية، وما في هذا ضير ما دامت لا تمس النص القرآني بضرر، وهنا تظهر العلاقة بين العملين، فالتفسير في جملته قسمان: تفسير بالمأثور، وتفسير بالرأي المحمود، وهذا الأخير لا يبعد عن الترجمة التي تعد في عمومها مجالا للاجتهاد شأنها شأن غيرها من أنواع النشاط الإنساني، بل هي في خدمة الثقافة الجماهيرية سواء كانت إسلامية أم لا، إلا من حيث أنَّ التفسير بقسميه مبني على قواعد وشروط وأصول على عكس الترجمة التي تفتقد إلى هذه الضوابط.

من أمثلة الترجمة التفسيرية ترجمة آربري[29] التي عملها عام 1955 وعنوانها " the koran interpreted "، وهي كما يدل عليها عنوانها ترجمة مُفسَّرة وليست ترجمة حرفية، ويصفها عبد الرحمان بدوي بأنها "تعطي المعنى في أسلوب رشيق جميل دون التقيد بحرفية الآيات ولا تسلسل تركيبها اللغوي"،[30] ولا تبعد في هذا المقام أعمال بطرس المحترم في ترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية، وهي أول ترجمة كاملة للقرآن الكريم إلى هذه اللغة، اعتمدت على استخلاص

المنارة للاستشارات

المعنى العام في أجزاء السورة الواحدة وتعبر عنه بتعبير من عند المترجم، وهذا عيب عام على هذه الترجمة".[31]

إن إجراء مقارنة بسيطة بين التفسير وبين ثلاث ترجمات لمجموعة آيات من سورة واحدة يقف على المجهود الشخصي الظاهر في عملية الترجمة وعلى الاختلاف البيِّن بينها: فمثلا قوله تعالى في سورة الكهف ﴿**قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26) وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28)**﴾.

النظر إلى الآية من جهة التفسير المعتمد على الأصول والآثار والقواعد المعتمدة في هذا الباب يقتضي: "أن قوله: ﴿**قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا**﴾ أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله عز وجل فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿**قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه الله عليه من خَلْقه،[32] فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع منه ما لخلقه دون ربهم الذي خلقهم وليّ، يلي أمرهم وتدبيرهم، وصرفهم فيما هم فيه مصرفون. ولا يجعل الله في قضائه وحكمه في خلقه أحدا سواه شريكا، بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم، وتدبيرهم وتصريفهم فيما شاء وأحبّ". واتبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا، ولا تتركنّ تلاوته لا مغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك لن تجد من دون الله

المنارة للاستشارات

موئلا تئلُ إليه ومَعدِلاً تعدلُ عنه إليه واصْبِرْ يا محمد نَفْسَكَ مَعَ أصحابك الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ بذكرهم إياه بالتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها يُرِيدُونَ بفعلهم ذلك وَجْهَهُ لا يريدون عرضا من عرض الدنيا ولا تصرف عيناك عنهم إلى غيرهم من الكفار، تبغي بمجالستهم الشرف والفخر ولا تطع يا محمد من شغلنا قلبه من الكفار عن ذكرنا وكان أمره ضياعا وهلاكا"[33] وهذا رأي غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف" وهي ترجمة معتمدة تماما على آثار صحيحة.

النظر إليها من جهة الترجمة الفرنسية للمترجم سافاري: "الله يعلم تماما الزمن الذي مكثوا به أسرار السموات والأرض كشفت له هو يرى ويسمع كل شيء ليس له من واق غيره ولا يشرك أحدا في أحكامه واقرأ القرآن الذي أوحاه الله إليك فمذهبه لا يمكن تبديله ليس هناك تبديل من العلي الأعلى، كن صابرا مع الذين يدعونه صباحا ومساء طلبا لرحمته لا تحول عنهم نظراتك لتلقي بنفسك في ملذات الحياة الدنيا لا تتبع من نسينا قلبه وليس له من مرشد سوى شهواته وأهوائه المختلفة".[34]

النظر إليها أيضا من جهة الترجمة الإنجليزية لرودول: "قل الله أعلم كم مكثوا معه أسرار السموات والأرض أنظر واسمع إليه وحده ليس للإنسان ولي سواه ولا يشاركه احد في أحكامه وأعلن ما أنزل إليك من كتاب ربك لا يبدل كلماته أحد ولن تجد ملجأ من دونه ولا تدع عينيك تتحول عنهم سعيا وراء عظمة هذه الدنيا ولا تطع من جعلنا قلبه عظيم المبالاة بذكرانا ومن يتبع أهواءه وكانت أموره لا ضابط لها".[35]

المنارة للاستشارات

تكاد هذه الترجمات لا تختلف في عمومها عن التفسير وهي على اختلاف لغاتها رغم اندراجها في النمط التفسيري إلا أنَّ الاجتهاد الشخصي ظاهر فيها، وانعدام الاعتماد على مصادر التفسير أيضا قصَّر من الضبط ويمكن تسجيل النقاط التالية:

أ- من حيث المحافظة على ترتيب القرآن، فمنهم من حافظ على ترتيب القرآن المعروف، ومنهم من لم يحافظ عليه وإنما رتب القرآن على حسب النزول كما زعم،كما فعل بلاشير، منهم من لم يتخذ ترتيبا معينا وإنما قطع القرآن تقطيعا.

ب- من حيث التزام الحرفية في الترجمة، فمنهم من التزم بالترجمة الحرفية للقرآن، ومنهم من لم يلتزم لها، وإنما كان يترجم المعنى فقط.

ج- من حيث تجريد الترجمة، فمنهم من كان يضيف إلى الترجمة تعليقات إما توضيحية أو نقدية، ومنهم من لم يكن يعلق بشيء وإنما يترجم النص القرآني فقط.

الرابعة: أن تلك الترجمات مختلفة من حيث السهولة والغموض، فمنها ترجمات سهلة وواضحة ودقيقة مثل ترجمة رودول، ومنها ترجمات غامضة وعسرة.

الخامسة: أن تلك الترجمات مختلفة من حيث القيمة العلمية، فمنها ترجمات متقنة منضبطة، ولهذا كانت لها قيمة علمية واعتمدت وانتشرت وتُرجمت إلى لغات أخرى مثل ترجمة سافاري، ومنها ترجمات غير متقنة ولهذا انتقدت وردَّت.

السادسة: أنه يمكن أن يستفاد من نقد المستشرقين بعضهم لبعض في الحكم على تلك الترجمات وتقييمها، ومعرفة مواطن الغلط والضعف فيها.

المنارة للاستشارات

السابعة: ضرورة دراسة التعليقات التي وضعها المستشرقون على ترجماتهم؛ ليعرف قدر إدراكهم للقرآن الكريم ومدى صحة تصوراتهم لمعانيه.

من خلال ما سبق يمكن القول إن اللغة بعمومها بما تتمتع به من مميزات هي العامل الرئيس الذي ينبغي مراعاته في عملية النقل، وهي في القرآن الكريم أكثر حرصا على توخي الحذر، لكنها في عقليات المترجمين لا تعير القرآن كبير أهمية إما رعاية للمقصد المروم الذي يتجه أحيانا إلى الانتقاص، أو رغبة في إيصال الفكرة مهما كانت طريقة النقل، لذا وردت ترجماتهم عقيمة، ولا يمكن أن يكتب لها النجاح في ظل إهمال الخصائص اللغوية والصوتية التي امتاز بها القرآن الكريم، وهو الكتاب الذي أعجز العرب بل العالمين أجمعهم بفضلها، وليس عبثا أن يجعل الله تعالى كتابه الكريم موحدا في مراتب وجوده باللغة العربية ابتداء من اللوح المحفوظ، مرورا بجبريل عليه السلام، نزولا على قلب نبيه عليه الصلاة والسلام وصولا إلى تبليغه بالحرف العربي، إلا دليلا قاطعا على أن عربيته هي من الصفات الذاتية التي يجب توحيدها والمحافظة عليها في أداء نظمه وتأدية معناه".[36]

والحق أن التعامل مع اللغة العربية في باب الأدب العربي باعتباره شعرا أو نثرا يفرض مراعاة خصائص البيان العربي، فضلا عن التعامل معها في ما تعلق بالقرآن الكريم، ولا تتحمل الترجمة وحدها تبعات الانحراف بمراد الله تعالى بل يتقاسمها التفسير أيضا، والأخطاء التي وقع فيها بعض المفسرين حينما عمدوا إلى مجرد اللغة وجعلوها أصلا في التفسير وأغفلوا المصادر الأخرى كما فعل أبو عبيدة في تفسير قوله تعالى ﴿**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾".[37] ففسر قوله يعصرون بـ "ينجون" وهو على غير تفسير السلف

المنارة للاستشارات

الذي مقتضاه العصر من العنب وغيره"،[38] والمؤرخ السدوسي الذي فسر لفظة السلوى بالعسل في قوله تعالى ﴿**وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾"[39] وقد فسرها السلف بالطير.

ومنه فالتفسير مطلوب لبيان مُراد الله تعالى لكنه إذا حاد عن الضوابط التي حددها العلماء من شروط وآداب لا تكاد تجد بينه وبين الترجمة فرقا، وربما في كلا نوعيها، لأن الترجمة التفسيرية أيضا يظلُّ المترجم فيها قاصرا عن نقل المعاني نقلا صائبا خاصة إذا كان اعتماده على نفسه وهواه من غير استعانة بسيطة ببعض قواعد اللغة المنقولة أو المنقول إليها، أو العودة إلى صاحب التفسير ذاته، والجهل بقواعد إحدى اللغتين لا يمكن أن يضمن أدنى حد من الصواب، وتظل الترجمة التفسيرية "نقل لفهم شخصي خاص لا تتضمن وجوه التأويل المحتملة لمعاني القرآن، وإنما تتضمن ما أدركه المفسر منها، وبهذا فهي ترجمة للعقيدة الإسلامية ومبادئ الشريعة كما تُفهم من القرآن."[40]

من جهة أخرى فإنَّ الهيئات الإسلامية كانت بمعزل تام عن المشاورة في شأن ترجمة القرآن الكريم، ولعلَّها لم تفرض الرقابة على عمليات الترجمة التي طالت نصوص القرآن الكريم، ومنه فإن الحديث عن الضرورة في التفسير تقتضي أيضا مراقبة من هذه الهيئات خشية أن يلج الباب من ليس هو بأهل حتى يستوي الأمران من هذه الناحية.

إذا عُلم أنَّ القرآن الكريم عالمي الخطاب يستوي في تلقيه العربي وغير العربي وأنَّ تفسيره مطلوب من هذا الوجه، وجب العلم أيضا أنَّ هذا لا يبرر ترجمته ترجمة حرفية، بل يدعو إلى نقل معانيه لغير الناطقين باللسان العربي،

المنارة للاستشارات

ويدخل ضمن الذود عن العقيدة الإسلامية مما دخلها من زيف أو تحريف أو نقل لمعاني غير صادقة أو صحيحة ممن قاموا بترجمته على نحو لم يراعِ أدنى قواعد اللغة، أو متطلبات النظم القرآني، وحين الحديث عن جوانب الاتفاق والاختلاف بين التفسير والترجمة وجدنا محمد حسين الذهبي يؤكد على هذه المسألة قائلا: "لو تأملنا أدنى تأمل، لوجدنا أنه يمكن أن يُفرَّق بين التفسير والترجمة التفسيرية من جهتين:

الجهة الأولى: اختلاف اللغتين. فلغة التفسير تكون بلغة الأصل، كما هو المتعارف المشهور. بخلاف الترجمة التفسيرية، فإنها تكون بلغة أخرى.

الجهة الثانية: يمكن لقارئ التفسير ومتفهمه أن يلاحظ معه نظم الأصل ودلالته فإن وجده خطأ نبَّه عليه وأصلحه. ولو فرض أنه لم ينتبه لما في التفسير من خطأ تنبَّه له قارئ آخر، أما قارئ الترجمة فإنه لا يتسنى له ذلك، لجهله بنظم القرآن ودلالته، بل كل ما يفهمه ويعتقده، أن هذه الترجمة التي يقرؤها ويتفهم معناها تفسير صحيح للقرآن، وأما رجوعه إلى الأصل ومقارنته بالترجمة فليس مما يدخل تحت طوقه ما دام لم يعرف لغة القرآن".[41]

وعلى هذا فإن سريان القرآن بين التفسير والترجمة بعود في أصله إلى الضوابط والقواعد والأسس المعتمدة في هذا الباب، وإن فرضت الترجمة نفسها فأقصى ما يمكن قوله أنها ليست حكرا على غير العرب فحسب وليس حرجا أن يَعمد صاحب لسان عربي إلى ترجمة المعاني القرآنية مساهمة في نشر تعاليمه بل تفسيره أيضا، وإذا علمنا يقينا أنَّ حضارة العالم تكمن في القرآن الكريم باعتباره خاتما وقد علمت أوربا ذلك وخَبرَتهُ تماما، فإنَّ العودة السريعة إلى جذور التاريخ إبان الحروب الصليبية توقفنا على أنَّ اللغة العربية كانت أجمع الدوافع الحضارية

المنارة للاستشارات

التي اعتمدها الصليبيون، لذا حرص مثقفوهم على تعلُّمها وهي لغة الكتاب الكريم، يقول آربري: "ولكن من الغريب أن المحاربين الصليبيين يبدو وكأنهم أهملوا فرصتهم لتعلم لغة أعدائهم".(42)

إنَّ ما أشار إليه آربري لا ينبغي أن يُهمل فهو يعلم جيدا شأن اللغة العربية، وهو الذي ردَّ على مارجليوت حين طعن في الشعر الجاهلي مُفجِرُ اللغة العربية، بل يجب أن يُساق لتعلم لغتهم هم أيضا للدفاع عن حمى الإسلام، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج لذلك وكانت المعاني صحيحة، ولذلك يُترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ويترجم بالعربية".(43)

يبقى الشعور الديني تجاه الناطقين بغير لغة القرآن مُلحا بالتوجيه إلى تعاليم الإسلام تفسيرا أو ترجمة، ولا ينبني على هذا إلزامهم بتعلم اللغة العربية إلا القدر الذي يضمن لهم تأدية الصلاة، إذ الدين يسر ولا يكلف الله نفسا إلى وسعها، بل حتى الترجمة التفسيرية التي تقتضي ترجمة التفسير لا يلزم منها إلا القدر الذي ينقل تعاليم الإسلام، قال الحافظ ابن حجر: "فمن دخل الإسلام أو أراد الدخول فيه فقرئ عليه القرآن فلم يفهمه فلا بأس أن يُعرَّب له لتعريف أحكامه، أو لتقوم عليه الحجة فيدخل فيه".(44) ومنه، فإنَّ النظر إلى موضوعي التفسير والترجمة يكون بالقدر الذي يضمن معرفة أحكامه وتشريعاته، ويحفظ سلامة النص القرآني، وبقدر ما بلغ التفسير من مراتب فيبقى للحِكَم الإلهية أسرارها وربما عجز المفسرون عن الوصول إلى مدلول الحروف المقطعة، ومنه فإن موضوع الترجمة بصفة عامة يقتضي عقد علاقة مباشرة بين الطرح النظري وبين

المنارة للاستشارات

التطبيق العملي وهي تقع في منطقة شد بين الصياغة اللغوية وبين إمكانية التطبيق العملي للنتائج"[45] وهو أمر لا يتماشى مع القرآن الكريم إلا بالمفهوم التفسيري السابق، وأما إذا تعلق الأمر بموضوع أدبي آخر فالترجمة الحرفية متاحة في ظل كون الموضوع الأدبي بشري المصدر، لكنها مع ذلك لا تقع صحيحة وافية لتفاوت مقومات اللغات الحية واختلافها"[46] أما إذا تعلق الأمر بالقرآن الكريم فالأمر يختلف.

إذا كُتب لهذه الموضوع التوفيق يمكن القول أن ضرورة التفسير لا تلغي محاولات الترجمة، بل ترقى بها إلى درجة الضروري المطلوب أيضا، وفي ذات الوقت إذا لقيت الترجمة الحرفية لمترجم ما رواجا كبيرا، فلا ضير أن يُقنع بإلغائها وإعادتها ترجمة تفسيرية، ولا يطالب بشروط وآداب المفسِّر إذ هو ناقل لا مفسر، وأنَّ ما تعرَّضت له الترجمة الحرفية من قيود إلا خوفا من ضياع الأصل العربي للقرآن الكريم كما ضاع أصل التوراة والإنجيل وغدت مُحرفة على ألسنة القوم، ولكلٍّ توراته وإنجيله، على خلاف القرآن الكريم الذي بلغت فيه اللغة العربية ذروتها، ولإيجاد علاقة وطيدة بين التفسير والترجمة المعنوية التفسيرية اشترط المجيزون أن تكون في "وجودها الكتابي مسبوقة بنص الأصل كالتفسير ليتم بناء حكمها على حكمه".[47]

ومسألة الحفاظ على الأصل القرآني بنظمه وبيناه وإعجازه لا يُضمن إلا بالترجمة التفسيرية، وإذا فُرض طرح سؤال مقتضاه كيف تمنع الترجمة الحرفية وقد وقعت بالعدد الذي أشير إليه سابقا؟ فالجواب: أن الذين عمدوا إلى ترجمة القرآن إنما باعتباره عربيا لا من جهة كونه معجزا"،[48] وأنَّ إعجازه أمر زائد على

المنارة للاستشارات

خصائصه، إذ البلاغة والفصاحة اتصف بها الكلام العربي ابتداء وبلغ بها القرآن الكريم المنتهى.

أخيرا وليس آخرا: إذا علمنا أن الأبحاث الأكاديمية والرسائل الجامعية في مجال الدراسات القرآنية أغنت المكاتب العربية والإسلامية مما تعلق بالنظم القرآني والإعجاز والخصائص الأسلوبية والبلاغية مما يكشف في كل مرة عن عجائب محمودة لهذا الكتاب الكريم، فإذا وجهت هذه الأبحاث إلى دراسة الترجمات الحرفية للقرآن الكريم فستكشف وبكل تأكيد عن غرائب منبوذة لهذه الترجمات.

وأن اتفاق العلماء على جواز تفسير القرآن الكريم أي طلبه شرعا وجوبا أو ندبا لم يكن لصحته وإمكانه عقلا بل لأن النبي صلى الله عليه وسلم فسَّره وأُمر بتفسيره قال تعالى: ﴿**الْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[49] وكذلك كان عمل الصحابة والتابعين والعلماء من بعده، على خلاف الترجمة التي يُعمل في قسمها الحرفي بقاعدة سد الذرائع، ويعمل في قسمها التفسيري بالضروري من نقل تعاليم الدين.

هوامش

1- الجاحظ، كتاب الحيوان، مكتبة مصطفى الباجي الحلبي وأولاده، مصر، تحقيق: عبد السلام هارون، ج1، ط2، ص74.

2- المصدر نفسه، ج1، ص76.

3- إحسان عباس، ملامح يونانية في الأدب العربي المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1، 1977، ص114.

المنارة للاستشارات

4- الجاحظ، المصدر السابق، ص75.

5- إحسان عباس، المرجع نفسه، ص24.

6- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط4، 1983، ص186.

7- إحسان عباس، ملامح يونانية، ص140.

8- الجاحظ، المصدر السابق، ج1، ص76.

9- وذلك في قوله تعالى ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**(190)﴾، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ويل لمن قرأها ولم يتفكر.

10- ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامي-بيروت، الطبعة الرابعة، 1391، ص179.

11- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان، دار الفكر، بيروت مكتب البحوث والدراسات، ط1، ج2، 1996، ص 77.

12- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ص21.

13- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، ج5، ص55.

14- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1391، ج1، ص13.

15- ابن منظور، المصدر نفسه، ج12، ص66.

16- زيد العامري الرفاعي، الترجمة العلمية مقاربة لغوية، ص2.

17- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ج1 ص19.

المنارة للاستشارات

18- المرجع نفسه، ص20.

19- سورة الغاشية الآية 17.

20- سورة الأنبياء الآية 18.

21- سورة الإسراء الآية 29.

22- مستشرق إنجليزي ومن عملاء الاستعمار البريطاني ولد عام 1840، تعلم اللغتين الأوردية والفارسية، وكذا العربية كان له دور بارز في تأليب بدو سينا ضد مصر لتأمين الجانب الشرقي من قناة السويس لصالح بريطانيا، لكنه لقي حتفه على يد هؤلاء البدو عام 1882، عبد الرحمان بدوي، المرجع نفسه، ص67.

23- المرجع السابق، ص69.

24- عز الدين محمد نجيب، أسس الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبالعكس، مكتبة ابن سينا، ط5، 1426هـ- 2005، ص9.

25- إسماعيل أحمد عمارة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية، وائل للنشر والتوزيع، ط3، 2002، ص17.

26- المرجع نفسه، ص17.

27- محمد حسنين مخلوف العدوي المالكي، مطبعة الحلبي وأولاده، مصر، 1351هـ، ص4.

28- الزرقاني، المرجع نفسه، ج2، ص80.

29- مستشرق إنجليزي ولد عام 1905، كان بارزا في التصوف الإسلامي والأدب الفارسي، درس اللغة العربية تقلد عدة مناصب، وله الكثير من المؤلفات والمنشورات والأعمال في مجال التحقيق، توفي عام 1969. عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط4، 2003، ص5.

المنارة للاستشارات

30- عبد الرحمان بدوي، المرجع نفسه، ص7.

31- المرجع نفسه، ص441.

32- ابن كثير، التفسير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ، 1999م، ج5، ص150.

33- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ 2000م، ج17، ص647.

34- محمد حسنين مخلوف العدوي المالكي، مطبعة الحلبي وأولاده، مصر، 1351هـ، ص39.

35- المصدر نفسه، ص41.

36- محمد حسنين مخلوف العدوي، المصدر السابق، ص20.

37- سورة يوسف الآية 49.

38- مساعد الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ص514.

39- سورة البقرة الآية 57.

40- مناع القطان، المرجع السابق، ص310.

41- محمد حسين الذهبي، المرجع السابق، ص23.

42- إسماعيل أحمد عمارة، المرجع السابق، ص19.

43- بن تيمية، دَرء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الرياض، 1391، ج1، ص26.

44- ابن حجر، فتح الباري، دار المعرفة، بيروت، 1379، ج13، ص517.

45- زيد العامري الرفاعي، المقال السابق، ص1.

46- محمد حسنين محلوف العدوي المالكي، المصدر السابق، ص10.

المنارة للاستشارات

47- محمد حسنين محلوف العدوي المالكي، المصدر السابق، ص54.

48- المصدر السابق، ص7.

49- سورة النحل الآية 44.

المنارة للاستشارات